مطـــر

قام كبور من مقامه، ومسح بيده حبات الرمل الملتصقة بجبينه بحركة تنم عن عياء شديد. فيما صاحب حركة يده سقوط قطرات باردة من المطر. رفع رأسه إلى السماء كأنما يتضرع، ويدعو الله أن ينهمر الماء، فبضع قطرات من الغيث غيركافية لشفاء الجراح التي خلفها الجفاف.

أعجاز نخل خاوية و اقفة؛ لم تثمر منذ زمن بعيد، وقد يئست، ويئس معها الفلاحون. أشجار التفاح و اقفة صرعى بجذوعها الميتة القاسية. الأنعام التي كانت مصدر إزعاج للبعض بأصواتها، ومصدر رزق للآخرين، لم يعد لها وجود في حياة السكان.

الحياة بتفاصيلها الرتيبة، والمملة تميل إلى العصرية. الرجال يحلقون ذقونهم، ويلبسون "البوديات" و"التشورتات"، و"الشورطات". لم يعد هناك من يعيركبير اهتمام للجلباب، والفوقية، والسروال "القندريسي"، والسلهام المراكشي الصوفي. الكل صار ينظر إلى الحداثة بعين الرضا. فقد تكسرت شوكة التقاليد والعادات القديمة، كليا، على حساب شوكة الحداثة، التي تقوت واشتدت بسرعة البرق.

ما أجهل المرء حينما ينسلخ من ماضيه ويتخلى عنه بكل سهولة، وبكل برودة دماء، وما أحقر الحياة حينما تكون مقيدة ببروتوكولات مقيتة ومنظمة تنظيما محكما؛ كأن تعتاد سيدة على نشر الغسيل صباحا، وتقدم

جبنا وكسرة خبز وكوب قهوة في الصباح لزوجها، وتتجه صوب "المارشي" لاقتناء كماليات العيش.

من الصعب أن تبقى الحياة كما هي، لكن من السهل أن نغيرها من السيئ إلى الأسوأ.

أتذكر النسوة ذات زمن، يضعن اللثام على وجوههن، ويسرن في خشية ورهبانية ما ابتدعنها مرضاة لأزواجهن، وطاعة لهم. يخرجن صباحا متجهات نحو الحقول، يجلبن للأنعام القوت، ويعدن في عجلة، كي يعددن الحريرة لأزواجهن، ليشربوها قبل أن ينطلقوا نحو الحقول لحرث الأرض وزرعها وسقيها.. يجلبن، أيضا، الماء من السواقي، ويحملن الجرار على رؤوسهن. كم هي الحياة قاسية على النساء القرويات، ورغم ذلك يشكرن الله، لأنهن تزوجن في البلد، لا خارجه.

أقارن هذه المشاهد التي أسعفتني بها الذاكرة، بنساء العصر. نساء، كل همهن أن يلبسن ويتمتعن بآخر الماركات والموديلات الموجودة في السوق. يضعن أحمر الشفاه، ويعلن الحرب على كل رجال "الدروب". يتبخترن، ويحركن أجسادهن كأنهن الياقوت والمرجان. فبأي امرأة يمكن أن يؤمن بها الرجل اليوم؟